رحلة بحرية - مع الماعز !

حقق أبى من عمله الخاص الكثير بالإضافة إلى ما ذكرته ، إذ بدأ هناك عمله فى أطلس تاريخ الإسلام الذى لم يكن فى بداية الأمر مشروعًا كبيرًا ، بل كان فكرة بسيطة تطورت وأصبحت ذلك الكتاب العظيم الذى نعرفه جميعا . ثم عمل أيضًا فى كتاب سيرة محمد ﷺ وفى كتب أخرى لا أذكرها حاليا على وجه التحديد . وساهم بمقالات فى مجلة العربى وبأبحاث فى مجلة عالم الفكر ، وكان يكتب عمودًا يومياً فى جريدة القبس سماه « كلمة طيبة » حقق كل ذلك وهو جالس يومياً فى الثانية ظهرا إلى ما يقرب من الثامنة مساء على نصف منضدة السفرة المخصص لعمله .

أما العطلة الأسبوعية فكانت يوم الجمعة ، وكنا نخرج من البيت بعد الصلاة نتناول الغداء فى مطعم اسمه سقراط وبعد الأكل كنا غالبا ما نذهب لزيارة أستاذ صديق كانت تجمعنا به وبأسرته صداقة منذ أيام أسبانيا ، إذ كان يعمل هناك وكيلا للمعهد . وأذكر أننا كنا نزورهم كثيرًا في يوم الجمعة وكانت زوجته حاملا فى الطفل الخامس . وأذكر أنهم كانوا متأكدين أن هذا الطفل سيكون ولدًا وكانوا سيسمونه « يوسف » وحدث أن الطفل كانت

بنتا (وهم الآن يقيمون فى مصر ، وقد أصبحت شابة جميلة جدا وذكية يتجاوز سنها العشرين بقليل) .

وكان الحديث يجرى فى هذه المناسبات والزيارات إما عن عمل يجمع بين أبى وصديقه وزميله أو عن ذكريات أسبانيا . فكان يذكر أبى – على سبيل المثال – احتفالات العاملين بمعهد مدريد حيث كانوا يذهبون إلى مطعم معروف بالمشويات وكان اسمه « كاسايدرو » ويوجد قرب « البلاثا مايور » بمدريد ، وكان يذكر كيف كان صديقه هذا يتقاسم بينه وبين سكرتير المعهد فى هذا الوقت ثلاث دجاجات مشوية ، إذ كان يأكل منهما دجاجة ونصفا ولا يتعبان من هذه الكميات أبدًا ، بينما كان باقى الجالسين يأكلون ربعا أو نصف دجاجة فقط . (وقد توفى سكرتير المعهد وهو صديق عمر طويل بعد أبى بيومين أما أولاده فله بنت متزوجة من مصرى ومقيمة فى ألمانيا وأخرى مرافقة لزوجها فى بلد عربى وولد مهندس ناجح يقيم فى مصر) .

وبما أننا نتكلم عن الطعام تخطر ببالى الآن نادرة من نوادر أيام الكويت الكثيرة إذ كان لأبى صديق هو طبيب مصرى معروف ودعانا هذا الطبيب على العشاء فى مطعم تابع لفندق مهم . وذهبنا لنقابل الطبيب الداعى وزوجته فى المطعم المحدد وكان المطعم مظلما إذ يتصور أصحاب هذه الأماكن العامة دائما أنهم يضفون جوا رومانسيا على المكان عندما يقللون الإضاءة فيه . فسمعت أبى يقول لصديقه بعد أن جلسنا على المنضدة المخصصة لنا :

– يا أخى إننى لا أستطيع أن أراك .

– أفندم يا دكتور ؟

– أعنى أننى أراك فى هذا النور الباهت ولا أدرى كيف أرى الأكل فى طبقى حينما يأتون به .

– هل تفضل أن نغير المكان ؟

– ليتنا غيرنا المطعم كله .

وحدث أننا تركنا المطعم وذهبنا إلى « كافيتريا » الفندق وكان مكانا جميلا أيضا وبه نور قوى جدًّا . وسمعت صديقنا الطبيب يقول لأبى ونحن نجلس :

– إنك فضحتنى يا دكتور .

– لماذا ؟ فأنا لم أقصد ذلك أبدًا .

فقال صديقنا :

– فضحتنى لأننى كنت أتيت بزجاجة .. أريد أن أشرب منها خلال تناولنا للعشاء ولكننى الآن لا أعلم أين أضعها بل أين أخفيها فى هذا النور .

– تستاهل يا أخى ، زجاجة إيه دى !

وضحك أبى عندما رأى الزجاجة ملفوفة جيدا والطبيب يمسك بها تحت إبطه . وبعد حيرة طويلة أوقفها أخيرًا على الأرض تحت

obeikandl.com

منضدة الأكل بين قدميه ، وكان طوال الوقت خائفًا أن تقع هذه الزجاجة على الأرض فقد تنكسر ويفتضح أمام الناس .

ويرجع هذا لأنه من الممنوع فى الكويت تناول المشروبات الكحولية ، فجرت العادة أنه من لديه هذه العادة أن يأتى بمشروبه وأن يضع الزجاجة على الأرض إلى جانب منضدة الأكل بعد أن يملأ منها كوبه ومن يفعل ذلك كان يحقق المثل الذى يقول « ولا من شاف ولا من درى » ، فكان بذلك يحترم قواعد البلد التى يزورها وفى نفس الوقت يرضى مزاجه ، ولكن كان من المهم أن تكون الإضاءة فى المكان ضعيفة . وهذه واحدة من القصص والحكايات والتناقضات الموجودة على اختلافها فى جميع بلدان العالم . أما صديقنا الطبيب فكان كلما قابل أبى بعد ذلك قال له « حرّمت يا دكتور والله ولك الفضل فى ذلك » .

وهكذا مرت أيام الكويت هادئة ذات جمال خاص ، وعند تخرجى من الجامعة هناك أتيت إلى القاهرة حيث كان أخى مقيما وحيث بدأت أعمل فى آخر نفس هذه السنة . وكنت بعد ذلك أزور أبى وأمى أحيانًا فى الكويت ، ولكن ارتباطاتى العملية فى مصر كانت تحد من هذه الزيارات .

وعندما سألت أمى مؤخرًا عن أهم شىء تذكره عن الكويت ردت قائلة . هناك أشياء كثيرة كانت مهمة . وربما يكون أهمها سوق الكويت والمشتريات ، إذ لم يكن فى أسواق مصر فى هذه

الأيام شيء من مستلزمات الحياة من أدوات كهربائية لازمة للحياة اليومية ولا ملابس ، فكان كثير من الناس يلجئون إلى « شارع الشواربى » حيث يجدون الأشياء المستوردة أو إلى « تجار الشنطة » الذين كانوا يمثلون ظاهرة حقيقية فى هذه الأيام إذ انتشروا انتشارا مذهلا .

وقد تكون أمى على حق إذ كنا نجد فى المطار عند عودتنا إلى مصر فى عطلة الصيف جميع المصريين وقد حمل كل منهم فى يد مروحة كهربائية وفى اليد الأخرى بطانية ذات ألوان جميلة مغلفة فى ورق شفاف وكذلك جهاز « راديو ترانزستور » يحمله المسافر العائد تحت إبطه . ولا أظن أن السوق المصرية تحسنت إلا فى الثمانينات ثم لم تصبح سوقا بمعنى الكلمة إلا فى التسعينات حيث أصبح من الممكن شراء أى شيء فى مصر والاستغناء تماما عن المنتجات الأجنبية أو عن إحضار أى شيء من الخارج .

وأذكر أنه كان علينا أن نأتى بكل شيء من خارج مصر فى فترة الستينات والسبعينات . فعلى سبيل المثال كانت إبر الحياكة المصنوعة فى مصر – وتعتبر الابر من أبسط الأشياء – كانت تُصاب بالصدأ فتفسد القماش أما الخيط المصرى فكان غالبا ينقطع أثناء الحياكة . كان كل شيء غير موجودًا ولو كان موجودًا فإن نوعيته كانت رديئة للغاية ويكفى أن نتذكر « فترينات » المحلات فى مصر فى هذه الفترة ، إذ كانت خالية من أى شيء يحتاج

إليه المشترى لحياته اليومية ولست أعنى هذه الكماليات بل المنتجات الأساسية التى قد توفر حياة حديثة كريمة مريحة للمواطنين . وعبر أبى عن فترة الستينات فى مصر فى كتابه باشوات وسوبر باشوات (١٩٨٤) الذى مازال موجودًا فى السوق حتى اليوم بعد أن طبع منه حتى الآن ما يفوق العشر طبعات إذ لا أعرف أحدًا لم يقرأه . وأظن أن أبى كان قد فتح باب الكتابة عن هذه الفترة التاريخية الحاسمة بالنسبة لمصر بهذا الكتاب (ويذكرنى هذا بأننا لم نر ولم نستمع عن ناشر هذا الكتاب منذ ما يقرب من خمس سنوات على الأقل : عسى أن يكون بخير) .

وكان قد نشر كتاب « السوبر باشوات » فى بداية الأمر على شكل مقالات فى مجلة أكتوبر فى صيف ١٩٨٣ وحازت هذه المقالات إقبالا شديدًا من القراء .

وعندما كان أبى يجهز مجموعة مقالات لكى تنزل على هيئة كتاب - وحدث ذلك أكثر من مرة - لم يكن يقدم للناشر المقالات كما هى بل كان يقرأها بتأن وعناية شديدة ويضيف إليها فقرات وأحيانا صفحات كاملة حتى لا تظهر فى الكتاب المطبوع ثغرات ، ثم كان يضيف مقدمة تغطى الموضوع حتى يصبح كتابا علميا من الممكن الاعتماد عليه . وأذكر أن أمى كان يثيرها الضيق من مراجعات أبى المطولة لكتبه وكانت أحيانا تأخذ منه ما يحضره للناشر وتقول له : « إن هذا يكفى وحبذا لو كلمت الناشر الآن حتى يستلم المخطوط غدا » .

وبما أنى ذكرت كتاب « السوبر باشوات » يجب ذكر كتاب « دراسات فى ثورة ١٩١٩ » (١٩٧٦) الذى ذكر فيه أبى – وأعتقد أنه أول من يقوم بذلك – أن ثورة ١٩٥٢ كانت تتويجا للثورة المصرية نحو التحرر التى بدأت فى الحقيقة فى عام ١٩١٩ .

ولا يعنى ما كتبه أبى فى كتاب « السوبر باشوات » المذكور عن الفترة التى جاءت بعد ثورة ١٩٥٢ أنه لم يرحب بقدومها . فقد كان حسبما ذكرته أمى لى متحمسا لها حماس باقى المصريين حينذاك ، ونتج عن حماسته هذه كتاب آخر من أجمل كتبه وهو كتاب « مصر ورسالتها » (١٩٥٥) المعروف . وتحكى أمى أن حماس أبى للأحداث السياسية فى مصر فى الخمسينات جعله يكتب هذا الكتاب فى وقت قصير إذ كان – حسب كلامها – يعمل فيه ليلا ونهارا ولأن أفكاره كانت تأتى إلى ذهنه بسرعة مذهلة كان قلمه لا يلاحق فكره فى الكتابة فكان يدفع بالورقة المكتوبة بكف يده حتى تظهر الورقة البيضاء التالية أمامه يكتب عليها الجملة التى فى ذهنه قبل أن ينساها .

وكان ينفعل بكل ما يحدث فى مصر سواء كان على أرضها أو فى سفر ، وكان دائما ينظر للأمور من الناحية الإيجابية المشرقة التى قد يجىء منها الحل والطريق لمستقبل أحسن ، ولم يعرف انتماءً حقيقيا إلا انتماءه لمصر ولم يجامل أحدًا على حساب مصلحتها أبدًا . وأذكر بهذه المناسبة أنه كتب مقالا فى مجلة

أكتوبر كان موضوعه « نحن لا نحب الروس ولا الأمريكيين » وذكر فيه كيف تعانى مصر وقتها من كلتا الكتلتين على قدم سواء . وحدث أنه تسلم خطابا بعد ذلك بأسبوع تقريبا من الغرفة التجارية الأمريكية حيث كان عضو شرف فيها يبلغونه بإيقاف عضويته فيها .

كان لأيامنا فى الكويت – كما ذكرت – طابع خاص سمته الأولى هى الشعور بالاستقرار والحياة الهادئة . وأحيانا كنا نقوم برحلات غالبا ما كان يحدث ذلك مع أصدقاء أبى الكويتيين . فأتذكر – على سبيل المثال – أن دُعى أبى ونحن معه لزيارة جزيرة فيلكة الكويتية . فقالوا له إننا سنبحر فى أرض الكويت للجزيرة بـ « لانش » يمتلكه أحد أصدقائهم . ففكر أبى فى الموضوع وكانت تدور بباله فكرة أن ربما كان الذى سيقود هذا « اللانش » لا يعلم قيادته جيدًا ، فكثير من أبناء الأثرياء يقودون كل شيء بدون استخراج رخصة قيادة رسمية تسمح لهم بهذا . فخشى على نفسه وعلى من معه وقال له « إننا نريد ضمان وصولنا إلى الجزيرة . وأخشى أن ينقلب بنا هذا « اللنش » فنغرق فى البحار ولا نجد من ينقذنا ، ساعتها لن نرى فيلكة ولا أى شيء آخر . أرجو أن تدبر لنا الرحلة بالطريقة المعتادة لهذا الغرض حتى نصل آمنين » . واتفقوا على الميعاد واليوم والمكان ..

ووصلنا حسب المتفق عليه فى مكان يشبه الميناء الصغير ، وإذا

بمركب خشبى كبير جدًا واقف قرب الشاطئ . كان مركبا ضخما كبيرا لم يقف على مرسى أرض الكويت ، بل كان على مقربة من الشاطىء . ولم يكن لهذا المركب سلم يصعد عليه ، بل كانت هناك خشبة طولها أقل من عشرة أمتار ، أما عرضها فكان تقريبا عشرين سنتيمترا . ولم تكن هذه الخشبة صلبة قوية بل كانت تميل بوزن من يخطو عليها . أما البحر ما بين هذا المركب والشاطىء فكان لونه قاتما مما يدل على أن المياه كانت عميقة . ورأينا أنه لا يصعد على هذه الخشبة إلا قطيع من الماعز .. كان عددا كبيرا من هذه الماشية وكل مجموعة معها راعيها وكان جميع الرعاة من أصل إيرانى . فإذا صعدت ماعزة منها وحدها على هذه الخشبة قام راعيها بشدها أو بدفعها إلى أمامه حتى تصعد إلى المركب .

وبعد صعود مجموعة منها يأتى الراعى الذى بعده . عرفنا بعد ذلك أن هؤلاء الرعاة كانوا يأتون بهذه القطعان لكى ترعى على الجزيرة ثم أنه – على ما أظن – كان فى الجزيرة سوق يبيعون فيه هذه الحيوانات .

ووصلنا نحن – أى أبى وأمى وأنا – فحيينا أصدقاء أبى ووقفنا نتفرج على الماعز وراعيها وهم يصعدون على هذا المركب القديم وكلما بلغ أحدهم منتصف الخشبة إذا بها تميل وتتقوس إلى أسفل وكأنها ستتكسر ، هذا مع الضجة العالية التى كان يحدثها رعاة الماعز وأصوات الرعاة . كنا نتفرج ونحن غير مدركين أن نفس

هذا المركب هو الذى سينقلنا نحن أيضًا إلى فيلكة . وبعد قليل سأل أبى أصدقاءه عن المركب الذى سنقوم عليه برحلتنا فقالوا له هو نفس هذا المركب وأنه بمجرد صعود جميع القطعان ورعاتهم فإننا سوف نصعد . فسكت أبى ولم يقل كلمة فقال له صديقه : « ألم تقل يادكتور أنك تخشى ركوب اللانش ؟ هذه هى المواصلة الشعبية العادية لفيلكة » . كان من عادة أبى أنه لا يحب أن يجازف فكان دائمًا يبحث عما هو آمن ومع ذلك كان جريئا جدا عندما يستلزم الأمر ذلك .

وعندما سمعت أمى أننا سنستخدم هذا المركب نفسه انزعجت كثيرا وقالت بتصميم : « إننى لن أترك زوجى يصعد هذا المركب على هذه الخشبة . هذا أمر خطر جدًا . لا نريد أن نذهب إلى فيلكة : وأظهرت بذلك خوفها الشديد على أبى وسلامته ، فكانت طوال عمرها معه تخشى ما قد يصيبه وكان أبى لذلك أحيانا يخفى عنها ما قد يثير فيها الخوف . فكان عندما يسافر – على سبيل المثال – يحدد لها مدة سفره للخارج ثم بعد انتهاء المدة يكلمها تليفونيا فيبلغها بأن الرحلة ستطول بضعة أيام حتى يتمم كل ما كان ينوى أن يحققه وكان معظم أسفاره لذلك يزيد على المدة المتفق عليها من البداية وكان يظن أن ذلك سيخفف أمر الفراق عليها .

المهم : عندما رأى أبى خوفها هدّأها بقدر الإمكان حتى جاء دورنا فى صعود المركب وأمى تريد منع أبى من ذلك لأنها كانت

تخشى على سلامته . ولكنه صعد ثم تبعته أنا وأخيرا صعدت هى . ومضت الرحلة البحرية ونحن محاصرون بعشرات من الماعز ومعها رعاتها وكانت أمى تقول بصوت خافت « ليتنا كنا أخذنا اللانش » .

ووصلنا فيلكة وزرنا هناك متحفا صغيرا به بعض الآثار الإغريقية أو الرومانية (لا أتذكر بالضبط) وأكلنا ما كنا قد أتينا به من مأكولات لأن الجزيرة لم تكن مجهزة آنذاك لاستقبال الزوار ، ثم عدنا آخر النهار وأظن أننا لم نخرج فى رحلة أخرى بعد ذلك .

مضت حياتنا أيام الكويت هادئة مستقرة وكانت تتيح لنا الفرصة للدخول فى مناقشات طويلة مستفيضة نتذكر خلالها أيام أسبانيا أو نخطط لشيء سوف نقوم به فى مصر . وكان هذا غالبا ما يحدث أثناء تناول أبى لعشائه . فكان – كما قلت – يقف عن العمل فى حوالى الثامنة مساء وكانت أمى تذكره بالميعاد لأن أبى حينما كان يعمل كان ينسى الوقت تماما فكان ينهمك فى عمله ويعيشه بفكره وكيانه . بعد عمله اليومى كان يتناول العشاء على منضدة صغيرة فى حجم صينية الشاى التى كانت تضعها له أمى فى غرفة المعيشة أمام التليفزيون ، ثم ينزل بعد العشاء ليتمشى نصف ساعة تحت العمارة . ومعظم عمارات الكويت كانت مبنية مرفوعة فوق أعمدة فكان هو يمشى نصف ساعة ثلاث مرات يوميا – أى بعد كل وجبة من الوجبات تحت هذه الأعمدة وأحيانا

كنت أنزل معه وفى أحيان أخرى كان يأتى أحد أصدقائه ليتمشى معه إذ اكتسب الكثيرون من أصحابه عنه بعد ذلك عادة المشى اليومى . وكثيرا كان ينزل وحده . بعد ذلك كان يعود ويغير ملابسه ويجلس معنا أنا وأمى إلى ميعاد نومه عند منتصف الليل أو بعده بقليل .

وأثناء جلساتنا هذه كان يدور معظم تفكير وكلام أمى حول موضوع بيتنا فى مصر . فكنا عندما نعود إلى مصر فى العطلات الصيفية ننزل ونقيم فى البيت فى ميدان الروضة ، وكان كل أمل أمى أن يستعيد أبى « فيلا » اه كان بناها تابعة لمنشآت هيئة التدريس بجامعة القاهرة وكانت وراء شارع مصدق بالدقى . كان أبى قد أصر أن يؤجرها بعد إتمام بنائها ونحن فى سفر خارج البلاد حتى لاتمكث خالية ويسرق مافيها مثل الحمامات والأبواب وغير ذلك . وكان ذلك كثيرا ما يحدث فى البيوت الخالية .

وهكذا أجرها لرجل ثرى بأجر رمزى ، وكان الاتفاق بينه وبين هذا الرجل الساكن أن يخليها بمجرد عودتنا من أسبانيا إلى مصر ، وعندما طلب منه أبى أن يخلى البيت لم يف الرجل بوعده وتمسك بقانون الإيجار الجديد الذى كان . يراعى حقوق الساكن على حساب حقوق صاحب الملك الأصلى .